في طريق المدينة*

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق سحراً – ولا يبدو السحر على أتمه إلا في البادية ، فلا ليل في الجلال كليلها ، ولا صبح في الجمال كصبحها ، ولا نهار في الشدة كنهارها – فجلس ينظر الى هذه الصحراء التي تمتد من حوله ؛ يذيب أولها في بياض الفجر المقبل ، وآخرها في سواد الليل المدبر ، وهي ساكنة سكون الموت ، واسعة سعة السماء ، فأحس في نفسه بشيء لم يحس به قط ؛ فقال : لا إله إلا الله ! فخرجت من أعماق قلبه . . . وأي امرىء تلقيه الأيام في البادية ، فيرى ليلها ونهارها ، وشمسها ورمالها ، ثم لا يكون أشد الناس بالله إيماناً ، وعليه اتكالا ؟ وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق ؛ وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن يموت عطشاً ، أو يهلك جوعاً ، إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً ، أو ينحرف عن وجهته شبراً . . . وكيف يكفر بالذي لا يرجو النجاة إلا منه ، ولا قوة إلا به ، وليس له من يدعوه إلا إياه ؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية ، فطفق يذكر هذه الأيام ، وينظر ما أفاده فيها ، فاذا هو قد عرف من خبر العرب ، في سبعة عشر يوماً ، ما لم يعرفه في سبع عشرة سنة ، يقرأ فيها أسفار العرب ، ويتلو أشعار العرب ، ويدرس لغة العرب ، وتاريخ العرب ، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلثمائة سنة في الزمان ، لا ألفاً وثلثمائة كيلو على الأرض ؛ وسلك الطريق التي سلكها الغزاة الأولون ، فعلم أن سر قوة العربي الأول الذي عمل ما لم تعمله الجن ، ولا تقوى عليه المردة ؛ حتى بنى للحضارة هذا الصرح العظيم ، فأوت اليه ، وتفيأت ظلاله ، وإن سر عجز العربي الأخير ، حتى نام عن هذا الصرح ، وأباح العدو حماه ، إنما هو (بعد الاسلام) هذه الصحراء

هذه الصحراء التي لا يعيش فيها الجبان العاجز ، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد ، لا ينالها إلا شجاع مقدام ، أخو غمرات ، صبار على النكبات ، ضحاك في الملمات ، وإلا ابن الشمس ، صديق الرمال ، حليف الجوع والعطش ، ذو إرادة لا تنثني ، وهمة لا تطاول ، وعزيمة لا تفل

ولا يعيش فيها المريض ، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى ، ولكنها خلقت ميداناً للأبطال ، وأنى يأتي البدوي المرض ، مادام لا يؤتى من قبل معدته (والمعدة بيت الداء) ، ومادام كل طعامه التمر والسمن واللحم والأقط ، وكل شرابه اللبن والماء ، فاذا مرض يشرب قارورة من شعاع الشمس ، وشمس الصحراء أنفع من مجموع صيدليات باريز ؛ فاذا لم تجده نفعاً ، أجداه الكي ، وما بعد الكي إلا حياة كاملة أو موت كامل ، هو خير على كل حال من حياة ناقصة . . . وقديماً قالوا آخر الطب الكي !

ولا يعيش فيها الفقير ، لأن أهلها كلهم أغنياء . . . وهل الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب ؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له وكلأ لمواشيه ؟ فاذا أمحلت الدار أم غيرها :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متحول

ولا يعيش فيها المنافق المتملق الخداع ، الذي يلبس جلد الحمل على جلد الذئب . . . . لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشفة ، ظاهرها كباطنها ، وليس فيها سقوف ولا جدران ، ولا مغارات ولا سراديب ، وكذلك نفس العربي ما في قلبه على لسانه ؛ فان عاداك فعداوة الشريف ، يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به ؛ ويحمل إليك الموت على شفرة السيف ، لا يقدمه في كأس من الذهب ، قد خالط فيها السم بالدسم ؛ وإن صافاك آخاك ، فأخوة الشريف يفديك بنفسه وماله ، ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه ، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع ، أو خشونة في القال ، فلن تنكر منهم عوضاً تلوناً ولا تملقاً ، ولا تنكر منهم لين الحية ولا لطف المستعمر ... على أن الجفاء ليس من شأن العرب ، ولا هو في جميعهم ، وإن فيهم للطفاً ، وإن فيهم لظرفاً ، وإن لهم لأحلاما . . .

* * *

وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال ، ويستثقلها ويراها كأنها الدمى فيها جمال وليس

* أنظر مقالة (في طريق المدينة) في العدد ٩٧ من الرسالة

فيها روح ؛ فلما كانت أوّل ليلة قضاها وأصحابه في البادية ، وحطّ الركب في قاع الدغيلة (١) فوقفت السيارات الخمس ، ووضعت الأحمال ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، ورفعت القدور ، وبسطت البسط ، ومدّت الفرش ، وكمل المجلس حتى قام المذياع (الراديو) يسمعهم بين الشّيح والقيصوم ، أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم

فـ ... باتوا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر

فنادى منادي الرحيل ؛ فما هي حتى طويت الخيام ، ولفّت البسط ، وشدّت الأحمال ، فإذا كل شيء كأنه حلم ، أو كأنه صفحة طويت ، ولم يبق إلا النؤى المهدم ، وإلاّ موقد النار ، فامتلأت نفسه حزناً ، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة ، وأعمق شعور ، بكلمة النابغة التي استثقلها ، وعدّها من القول المعاد ، والكلام الفارغ :

عوجوا لخيرا لنعم دمنة الدار . . .

وانطلق يقف اخوانه لحظة ، يحيّي فيها هذه البقعة التي ترك فيها ليلة من حياته ، وطائفة من ذكرياته ، وقطعة من نفسه ؛ ثم عاد فسخر منهم كيف يقفون على أحجار قد سوّدتها النار ، وحفرة حفروها من حول الخيمة خشية الأمطار . .

ماذا تحيّون من نؤي وأحجار ؟

ويجد القاع بعد أن تقوّضت الخيام ، وطويت البسط ، وضاع المكان الذي سوّاه لنومه ، وأعدّه لجلوسه

أقوى وأقفر من نعم وغيّره هوج الرياح بهابي الترب موّار

ويطول به الوقوف ، وأصحابه يستحثّونه ، والسيارات (تصرخ) مستعجلة ، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع . هل يحفظ هذه الذكريات ؟ ويسأل هذا القاع : هل يذكر أبداً هذه الليلة التي قضاها فيه ، والعواطف التي استودعه إياها ؟ فلا يسمع مجيباً ، ولا يجد إلا أحجار الموقد ، وإلا هذا الثمام الضعيف اللّيّن ، الذي جمعوا منه فأوقدوا به النار ، واتخذوه فراشاً ، فينشد قول النابغة :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به إلا الثّمام وإلا موقد النار

وتعدو به السيارة عدو الظليم ، وهو لاهٍ عما حوله ، يتمثل الشاعر وقد عمّ الديار ، فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً :

ناديت : أين أحبّتي ؟ فأجبت : أين أحبّتي ؟ !

فبرّح به الشوق ، واشتعلت في صدره النار ، وكواه الهجر ، فذهب يذكر نعماً ، وقد كان يسارها حتى ينأى بها عن الحيّ ، ثم يجلسان حتى تغيب الشمس ، ويلفهما الظلام برداء الأمن من الرقباء ، ويسبغ عليهما نعمة الحبّ ، فلا يكون بينهما إلا كل خير : يبثها حبّه ، فتشكو له حبّها ، ويكشف لها عن قلبه ، فتكشف له عن قلبها ، ولا يخفى عنها شيئاً ، ولا تكتمه شيئاً :

وقد أراني ونعما لاهيين بها والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
أيام تخبرني نعم ، وأخبرها ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

***

وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة ، ونفذ إلى روحها ، وقد كان يتلوها ، ويدرّسها ، ويشرحها ، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجملها ، وعروضها وإعرابها ؛ وجعل يذكر ما حفظ من أشعار الديار ، فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل ، فيعلم أنه قد كان منه في ليل مظلم ، لا يرى فيه إلا سواداً فطلعت تلك الساعة بدراً ، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة ، وفتنة وجمالاً ، وروضة وأنهاراً ...

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من قولهم : (أن ترد الماء بماء أكيس) إلاّ أن ذلك أحزم ، فلما خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء الحزيم الذي طالما وصفوه لهم وحببوه اليهم ، وجده بئراً منتنة خبيثة ، تقتل من يشمها ، فكيف عن يشرب منها ؟ فعلم أن معنى أكيس : أنك لاتشرب ماء خبيثاً فتمرض !

فلما وردوا ماء الفجر ، بعد مسيرة يومين في الشعب لم تسر السيارة فيهما كيلين متتابعين على أرض كالأرض ، ولكنها كانت

(١) بعد الأزرق قرب الحدود بين شرق الأردن والحجاز ، وقد قضينا فيه ليلة الثلاثاء في ٢ ابريل سنة ١٩٣٥ في رحلتنا الى الحجاز